http://nj180degree.com

NYROUF

فتوح مصر

لابن عبدالحكم

د. إبراهيم أحمد العدوى

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

http://nj180degree.com

فتوح مصر

لابن عبد الحكم

NYROUF

د . ابراهيم أحمد العدوى

NYROUF

http://nj180degree.com

مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

فتوح مصر
لابن عبد الحكم
د. إبراهيم أحمد العدوى

ابن عبد الحكم وأسرته

ينتسب المؤرخ ابن عبد الحكم الى احدى الأسر العربية التى جاءت الى مصر فى القرن الأول الهجرى السابع الميلادى ، ونزلت فى بلدة الحقل بالقرب من أيله (العقبة) . وفى القرن الثانى للهجرة انتقل أفراد هذه الأسرة الى الفسطاط التى صارت بعد الفتح الاسلامى لمصر ، عاصمة البلاد وقلبها النابض فى شتى الميادين الثقافية والسياسية . وأسهم أبناء هذه الأسرة فى خدمة وطنهم حيث اشتغلوا بالدراسات الدينية كما تولوا المناصب الكبرى فى البلاد ، وقاموا بدور هام فى توجيه أحداثها السياسية كذلك .

وتجمع المجد العلمى والسياسى لهذه الأسرة على عهد والد المؤرخ ابن عبد الحكم وهو عبد الله بن عبد الحكم .

http://nj180degree.com

وبذلك أتيح لهذا المؤرخ فرصة فريدة درس فيها عن كثب أحوال وطنه وجيرانه في الميدانين الفكرى والسياسى، ثم سجل نتائج دراساته وأبحاثه فى كتابه الوحيد « فتوح مصر والمغرب » . اذ ولد ابن عبد الحكم سنة ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م ، وكان والده يشغل اذ ذاك منصب « صاحب المسائل » ، وهى وظيفة لا ينالها الا العلماء الأمناء ، لأن القائم بها يضطلع بمهمة التحرى عن الشهود الذين يترددون على مجالس القضاء ، والسؤال عن نزاهتهم ، ضمانا لسير العدالة .

وعندما بلغ ابن عبد الحكم الثانية عشرة من عمره شاهد مجيء الامام الشافعى الى مصر (١٩٩ هـ) ، ونزوله ضيفا على والده الذى اشتهر بالكرم والحفاوة بالعلماء . وهيأت هذه المناسبة الطيبة سبيلا عظيما أمام ابن عبد الحكم ليستفيد من الحركة الفكرية المباركة التى أشعل الشافعى جذوتها فى مصر . ولم تلبث الأحداث أن فتحت سبلا أخرى عديدة للمعرفة أمام هذا المؤرخ الناشىء حين تولى والده - بعد خمسة سنوات من مجيء الشافعى لمصر - رئاسة جماعة المالكية ، وهى أعظم الطوائف فى مصر وعند جيرانها فى بلاد المغرب ، اذ جاء علماء المغرب والأندلس الى هذا العالم الكبير يدرسون على يديه مذهب مالك ، والتقوا بالتالى فى منزل أستاذهم بابنه المؤرخ ، وزودوه بالأخبار العديدة عن أوطانهم وأحوالها .

■

وكان ابن عبد الحكم فى أخوته الكبار ، وكانوا ثلاثة من أعظم علماء مصر وفقهائها الأجلاء ، أساتذة له أيضا ، ونال على أيديهم قدرا واسعا من ثقافته وخبرته بالحياة . فكان أخوه الأكبر ، واسمه عبد الحكم ، فقيها على مذهب مالك ، ومن المشهود لهم بالتقى وجودة الخط . والأخ الثانى ، واسمه سعد ، فقد ذاع صيته فى شتى أرجاء مصر والمغرب بسبب علمه الغزير ، ورحل اليه الطلاب من كل مكان لينهلوا من مورده الفياض . واشتهر الأخ الثالث ، واسمه محمد ، بحبه للحديث وروايته ، ونبغ فى ذلك حتى آلت رئاسة المالكية فى مصر اليه بعد وفاة والده عبد الله .

واذا كان المؤرخ ابن عبد الحكم قد استفاد من نشاط أسرته العلمى ، وشاركها حلو الحياة فانه قاسمها كذلك مر الحياة ، وناله قدر بالغ من الأذى الذى حل بأفرادها بسبب اشتغالهم بالشئون السياسية فى البلاد . وشاهد ابن عبد الحكم أولى النكبات التى حلت بأسرته وهو فى السابعة والعشرين من عمره . اذ اعترض جماعة من كبار أهل مصر على تعيين الخليفة المأمون العباسى لأخيه المعتصم حاكما على بلادهم ، وكتبوا الى الخليفة بذلك . وعندما جاء المعتصم الى مصر ألقى القبض على نفر من كبار أهل مصر ومن بينهم عبد الله ابن عبد الحكم . وعلى الرغم من عدم ثبوت أية تهمة بهذا الرجل الفاضل الا أنه ظل سجينا

http://nj180degree.com

حتى لقى حتفه سنة ٢١٤ هـ - ٨٢٩ م · وتركت هذه المأساة أثرا عميقا فى نفس الابن الشاب ، وجعلته يكره السياسة والاشتغال بها وينصرف بالتالى الى العمل فى ميدان التاريخ ·

وتتابعت المآسى بعد ذلك أمام ابن عبد الحكم ، فلم يكد يمضى على وفاة والده ثلاثة عشر عاما حتى حلت باخوته نكبة قاسية بسبب مشكلة خلق القرآن ، التى أثارها جماعة المعتزلة أيام الخليفة المأمون العباسى · اذ تعصب الخليفة لرأى المعتزلة القائل بمبدأ خلق القرآن ، والذى يخالف رأى أهل السنة القائلين ، بأزليته وأمر بأن يمتحن الناس فى مصر ، وألا يؤذن لأحد فى فتوى أو شهدة الا اذا أقر بخلق القرآن · واشتدت هذه المشكلة فى مصر حين ولى المعتصم الخلافة بعد المأمون · فبعث الخليفة الجديد الى قاضى مصر وهو محمد بن أبى الليث بامتحان الناس فى القول بخلق القرآن ، ومعاقبة المعارضين منهم · وأصاب اخوة ابن عبد الحكم الكثير من الأذى فى هذه « المحنة » لأنهم من رؤساء المالكية وبالتالى من أنصار السنة الذين لايقرون القول بخلق القرآن · فأمر القاضى بضرب أكبر أفراد هذه الأسرة وهو عبد الحكم ، ثم بعث به الى الخلافة لتتولى امتحانه بنفسها بعد أن أصر على رفض القول بخلق القرآن ، كما أمر بأن يطاف بالابن الثانى ، وهو محمد فى شوارع الفسطاط ، وعمامته

مدلاة فى رقبته ، وهو يعلن [illegible] امعانا فى التشهير به ·

وقبل أن يفيق المؤرخ ابن عبد الحكم من هول ماحدث لاخوته ، وقعت الكارثة الكبرى والأخيرة التى تعرضت لها أسرته المنكوبة ، ذلك أن الخلافة بعثت بعمالها الى مصر لتتحرى عن أموال أحد الثائرين عليها ، واسمه ابن الجروى ، بعد أن ألقت علية القبض فى تلك البلاد · وترامت الشائعات بأن ابن الجروى أخفى شطرا كبيرا من أمواله عند أسرة ابن عبد الحكم ولذا أمرت السلطات بالقبض على أفراد هذه الأسرة ومن بينهم المؤرخ ابن عبد الحكم نفسه ، وعقدت لمحاكمتهم جلسة توفى النظر فيها القاضى ابن أبى الليث الذى سبق أن شهر بهم فى محنة خلق القرآن · وعرفت هذه الدعوى باسم « قضية بنى عبد الحكم » بسبب الأحكام القاسية التى نزلت بهم ، اذ حكم ابن أبى الليث على أبناء هذه الأسرة بغرامة مقدارها مليون ونصف مليون دينار تقريبا (١٫٤٠٤٫٠٠٠ دينار) · وتبع ذلك اتخاذ الاجراءات القضائية لتحصيل تلك الغرامة الباهظة من حيث مصادرة أموال وممتلكات بنى عبد الحكم، كما زج بهم فى السجون · ومات أكبر أفراد الأسرة ، وهو عبد الحكم فى السجن ·

وبعد ثلاثة أشهر من تلك المحاكمة الباغية اتضحت براءة أفراد أسرة ابن عبد الحكم ، ولذا أمرت الخلافة بالقاء

http://nj180degree.com

القبض على القاضى ابن أبى الليث ومحاكمته لأنه لم يلتزم العدالة فى تحرياته وحكمه · وفى نفس الوقت تم الافراج عن أبناء عبد الحكم وأعيدت لهم ممتلكاتهم · وآثر أولئك الأبناء الابتعاد عن الحياة العامة حتى لا يتعرضوا لمتاعب أخرى جديدة ·

ولكن شاءت المقادير أن تحفظ لتلك الأسرة ذكراها ، وتروى للأجيال المتعاقبة على مر القرون تفانيها فى خدمة الدراسات الاسلامية عن طريق العمل الفريد الذى نهض به المؤرخ ابن عبد الحكم · اذ جاء تدوينه لتاريخ مصر فى المرحلة الأولى من حياتها فى ظل الاسلام ثمرة ناضجة من الثمار الشهية التى قدمها أبناء أسرة بنى عبد الحكم من أجل خدمة وطنهم · واعترف الناس بما ناله هذا العالم من السبق المظفر على سائر اخوته فى ميدان الدراسات الاسلامية ، وصاروا يقبونه من دونهم جميعا ، ليس باسمه الأول وهو عبد الرحمن ، ولكن باسم « ابن عبد الحكم » كأنما هو وحده الحافظ الأمين على تراث أسرته العلمى والاجتماعى ·

المنهج التاريخى لكتاب فتوح مصر :

جاء تدوين ابن عبد الحكم لكتابه « فتوح مصر والمغرب » فى فترة من أهم فترات اليقظة الفكرية ليس فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية فحسب ، بل وفى تاريخ الفكر والثقافة فى العالم كذلك · وتجلت مظاهر هذه

اليقظة الفكرية الاسلامية فى حركة الترجمة والتأليف التى سادت أرجاء الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول · وأسهمت مصر عقب الفتح الاسلامى فى هذه الحركة الثقافية ، وعملت على توسيع نطاقها وفتح أبواب جديدة أمام العاملين فيها ·

وغلب على هذه الدراسات المبكرة فى مصر طابع التاريخ ، اذ انتشر فى البلاد عقب الفتح الاسلامى طبقة من الناس اهتموا بالقصص الدينى ، وتخصصوا فى جمع أخبارها وعرض مادتها عرضا طيبا · وجرى العرف على تسمية هذا النفر من الناس الذين عنوا بجمع الأخبار الشائقة باسم « القصاص » ، وأحيانا اسم الرواة والاخباريين · وكانت العادة اذ ذاك هى جنوس القاص فى المسجد وحوله الناس ويقص عليهم حكايات وأحاديث تدور حول شخصية النبى وأبطال الاسلام ، وعن الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، متبعا فى ذلك أسلوب الترغيب والترهيب ·

واضطلعت القصة التاريخية منذ ذلك الوقت بدور هام فى تدعيم أركان الحياة الثقافية بمصر ، ونشر الوعى بين أهلها · ذلك أن القاص اتخذ من تاريخ مصر القديم ، ولاسيما ما ورد منه فى القرآن الكريم مادة له كما استمد من أخبار القبائل العربية التى نزلت البلاد حقائق تساعده على تحقيق أهدافه الثقافية · ووجدت هذه القصص وما تضمنته من معلومات تاريخية قيمة طريقها الى

http://nj180degree.com

ابن عبد الحكم بفضل سلسلة من العاملين فى ميدان الدراسات التاريخية بمصر ، وصاروا يمثلون الأساتذة الأول لابن عبد الحكم ، وشيوخ الرواة الذين استقى منهم شطرا عظيما من مادته العلمية القيمة .

وكان من أقوى شخصيات مدرسة التاريخ فى مصر ، ويمثل الأستاذ الأول لابن عبد الحكم هو « يزيد بن أبى حبيب » (ت ١٢٨ هـ ـ ٧٤٦ م) . فكان هذا العالم على دراية دقيقة بأحداث فتوح مصر وما ساد البلاد بعد ذلك من فتن داخلية ، ونقل عنه الرواة الكثير من الأخبار ، والتى وصلت أخيرا الى ابن عبد الحكم . والى جانب هذا العالم تتلمذ ابن عبد الحكم على شخصية أخرى عظيمة هو عبد الله ابن لهيعة (ت ١٧٤ هـ ـ ٧٨٧م) . فبلغ من شغف ابن لهيعة بجمع أخبار مصر ، أنه « جعل له خريطة معلقة فى عنقه ، وكان يدور بمصر « الفسطاط » ، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم فكان اذا رأى شيخا سأله : من لقيت ؟ ، وعمن كتبت ؟ » . وأثر عن ابن لهيعة امتلاكه عدة كتب مخطوطة ، وأنه كان يتابع التدوين لكل ما يروى اليه أو يجمعه من أحاديث . ووجدت هذه الكنوز سبيلها الى ابن عبد الحكم ونقل عنها الكثير قبل أن تمتد اليها يد الفناء والزوال .

وعاش أيام ابن لهيعة عالم مصرى آخر نقل عنه ابن عبد الحكم كثيرا ، وهو الليث بن سعد الذى ولد بقرية

قلقشندة (من قرى القليوبية) سنة ٩٤ هـ / ٧١٣ م ، واشتهر الليث بمكانته العلمية ، حيث أجاد القرآن والنحو والحديث والشعر ، وذلك فضلا عن علمه الواسع بالنواحى الخاصة بتاريخ مصر ، وما يتعلق منها بأحداث الفتح الاسلامى وكبار الموظفين فيها . وتناقل الخلف عن السلف المادة التاريخية الهائلة التى جمعها الليث عن وطنه مصر ، حتى وصلت الى أيدى ابن عبد الحكم ، ووجد فيها كنزا ثمينا أتاح له تدوين الأحداث المبكرة للفتح العربى للبلاد .

والى جانب هؤلاء الأساتذة الأول عاصر ابن عبد الحكم نفرا آخر من العلماء المصريين الذين تركوا أعظم الأثر فى دراساته التاريخية . ومن هؤلاء عثمان ابن صالح (٢١٩ هـ ـ ٨٣٥ م) . وتجلت شهرة هذا العالم فى قدرته الخارقة للعادة على حفظ تاريخ مصر المبكر ، على عهد كل من عمرو بن العاص ، وخلفه فى مصر ، وهو عبد الله بن أبى سرح . فصار حجة فى تاريخ النوبة وفتح المسلمين لها ولجأ اليه ولاة مصر لاستشارته فى كثير من الأمور المتعلقة بتلك النواحى . وأفاد ابن عبد الحكم فائدة كبرى من أستاذه عثمان بن صالح ، وخاصة فيما دونه عن جيران مصر ، وصار الفصل الذى كتبه ابن عبد الحكم عن بلاد النوبة نقلا عن هذا العالم ، مرجعا أساسيا للباحثين فى تاريخ العلاقات المصرية السودانية فى العصور الوسطى .

وهناك عالم آخر عاصر ابن عبد الحكم ، وترك له كنوزا قيمة من الدراسات التاريخية عن مصر ، وهو يحيى بن بكير (ت ٢٣١ هـ ـ ٨٤٦ م) . وكان ابن بكير يتفوق على أقرانه بحرصه على تسجيل كل ما يصل اليه من معلومات أو روايات ، وقد جمع منها قدرا عظيما أشار اليها ابن عبد الحكم ، مبينا صراحة أنه قرأ بعض الكتب التى وضعها ابن بكير ، وراجع ما جاء فيها من رواة أو اسناد ، كما ذكر أن ابن بكير نفسه أعطاه تلك الكتب ، وسمح له أن ينقل منها ما يريد .

وبذلك لم يكد ابن عبد الحكم يشب عن الطوق ويتجه الى دراسة التاريخ فى أواخر النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، حتى وجد فى وطنه مصر مجموعة هائلة من المادة التاريخية ، اشتملت على عدد كبير من القصص الشائع والأساطير فضلا عن الروايات المختلفة الألوان ، بعضها مكتوب والبعض الآخر ، وهو الغالب شفوى ، حيث تناقلته الأجيال تلو الأجيال . وبمطلع القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى تطلب الأمر تدوين تلك الروايات تدوينا منظما ، لأن الاعتماد على الذاكرة وحدها صار أمرا مستحيلا ، ولأن بعض الروايات المزيفة بدأت تأخذ طريقها الى الوجود ، بسبب الفتن العديدة التى امتلأت بها أرجاء البلاد العربية ، ومحاولة الأحزاب المتنافسة دس أحاديث أو أقوال مأثورة تضمن لها تحقيق

http://nj180degree.com

مآربها . ولذا كان لا بد [illegible] براثن هذه الحشود الهائلة من الأخبار ، وعرضها بما يكفل الاستفادة منها .

وساعد كذلك على تطور حركة تدوين التاريخ فى القرن الثالث الهجرى رغبة السلطات الرسمية فى تدعيم النظام المالى فى الدولة ، لأن الخراج الذى كانت تؤديه البلاد التى فتحها المسلمون اختلف من مكان الى آخر حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبعا للأحداث السياسية والاجتماعية التى سادت تلك البلاد أثناء الفتح . ولما كان الزمن قد بعد فى القرن الثالث الهجرى بأحداث الفتح ، وصارت ذاكرة الرواة لاتستطيع أن تعى ملابسات الفتوح ، فان الأمر بات يتطلب التدوين ، حتى لا يثار خلاف حول جباية الخراج من البلاد المفتوحة . ولذلك حان الوقت فى القرن الثالث الهجرى لكتابة التاريخ بطريقة منظمة ، مؤسسة على القصص والروايات والأخبار ، ووفق الأغراض التى استهدفها مؤرخو هذا القرن .

وكان هدف ابن عبد الحكم تجريد الأخبار المتعلقة بمصر ، وافرادها بالتأليف حتى يكون كتابه الحجة التى يرجع اليها المعاصرون له ، ومن يأتى بعدهم من الباحثين فى تاريخ مصر . ولم تكن مهمة هذا المؤرخ سهلة ميسورة بسبب كثرة الأقوال والروايات فى مصر ، سواء عن طريق

القصاص الذين امتلأت بهم المساجد ، أو الرواة الذين وفد اليهم الناس لسماع الأحاديث ، أو المخطوطات التى دأب نفر من الباحثين على تدوينهـــا طوال النصف الأخير من القرن الثانى ومطالع القرن الثالث الهجرى · ولكن هذا المؤرخ تذرع بالصبر وتسلح بالعمل المتواصل لدراسة تاريخ مصر قبل الاسلام ، ثم دراسة الفتح الاسلامى لها ، وبيان علاقتها بجيرانها فى ظل الحكم الاسلامى ، وتتبع التطورات التى شاهدها وطنه فى ظل العهد الاســـلامى الجديد ، سواء فى نواحى الادارة والسياسة ، حتى انتهى فى سرد بعض الحقائق التاريخية الى سنة ٢٤٦ هـ-٨٦٠م· أى قبل وفاته بعشرة أعوام تقريبا ·

وكان المنهج الذى ســـار عليه ابن عبد الحكم فى تاليفه هو المنهج العـــام الذى اتبعه المعاصرون له مـــن مؤرخى القرن الثالث الهجـــرى ، وهو المعروف بطريقة الاسناد التى جرى رواة الحديث على اتباعهـــا · فكانت كل حادثة تروى بالفاظ شاهد عيان أو معاصر ، ثم تصل فى النهاية الى الراوية النهائى أو المؤلف عن طريق سلسلة من الرواة (أو الاسناد) · وأدى الاسناد الى نظام الدقة التامة فى تدوين التاريخ الاسلامى ، ولاسيما من حيث الاصرار على تأريخ الحوادث وارجاعها الى الشهر ، بل والى اليوم · ثم ان طريقة الاسناد لم تكن عملا هينا ، وانما سببت للقائمين بها متاعب لا نهاية لها · اذ أن الأبحاث التى قام بها المؤرخ لتوثيق كل راو تطلب جهدا عظيما ،

http://nj180degree.com

وصارت صحة الأخبار المروية تتوقف على اتصال سلسلة الاســـناد ... على الفحص النقدى للخبر نفسه ·

وحرص ابن عبد الحكم على الدقة فى تحـــرى أسانيده ، ولا سيما أنه كان هو نفسه محدثا غلبت عليه طريقة المحدثين من حيث القدرة على تتبع الرواة المشهود لهم بالأمانة · واذا أحس هذا المؤرخ بأن هناك شك فى احدى الروايات فانه أعاد ذكرها ، من حيث بيان سلسلة الاسناد لكل مظهر من مظاهر تلك الرواية ، وذلك رغبة منه فى تحرى الأمانة العلمية المطلقة فى دراساته · ومع ذلك ظلت نظرية نقد الرواية التاريخية نفسها أمرا لا يعرفه ابن عبد الحكم ، كما لا يعرفه معاصروه من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ·

وهناك ناحيـــة أخرى نجح فيها ابن عبد الحكم ، كما أجـــاد استخدامها كذلك كل مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، وهى اعادة أواصر المودة والألفة بين مادة التاريخ وميدان جمع الأحاديث النبوية وتبويبها · ذلك أن مؤرخى السيرة منذ فصلوا التاريخ عن الحديث ، وصاروا يعملون على جمع الحوادث والأخبار ، وهم موضع نقـــد رجـــال الدين ، الذين أطلقوا عليهم اسم « الاخباريين » للتفرقة بينهم وبين المحدثين · غير أن ابن عبد الحكم استطاع ، كما فعل معاصروه من المؤرخين أن يعيد تيار التاريخ وتيار

الحديث الى الالتقاء مرة ثانية . وحالف التوفيق ابن عبد الحكم لأنه محدث بارع ، ومن بيت اشتهر كل أبنائه بالفقه والاجادة فى جمع الحديث ، وصار بالتالى حجة فى دينه ، وموضع ثقة الجميع . ولذا استطاع هذا المؤرخ المصرى ، بفضل ما توافر له من خصال الدين والدنيا أن يرفع من شأن التاريخ وشأن المشتغلين به كذلك .

واستطاع ابن عبد الحكم أيضا بفضل اجادته للمنهج التاريخى العام الذى اتبعه كل المعاصرين له من المشتغلين بالتاريخ أن يضمن لمؤلفه الاحترام ، وأن يصبح مرجعا لا يستغنى عنه أحد من الراغبين فى الدراسات العلمية المتعلقة بالمرحلة المبكرة من انتشار الاسلام . وفى نفس الوقت ضمن ابن عبد الحكم لاسمه أن يقف على رأس قائمة المعاصرين له من كبار المؤرخين ، والذين كرسوا كل وقتهم وحياتهم لهذا اللون من الدراسات الاسلامية . فقد عاصر ابن عبد الحكم نفر من كبار المؤرخين منهم الطبرى ، صاحب كتاب « تاريخ الرسل والملوك » ، وهو المرجع الوافى الذى مازال الى اليوم نبراسا يهدى الباحثين فى أحداث العالم الاسلامى وتفهم أصوله ، وشتى التيارات التى امتلأت بها بلدانه . وعاصر ابن عبد الحكم أيضا المؤرخ المشهور « البلاذرى » ، صاحب كتاب « فتوح البلدان » ، والذى أورد فيه فصولا تضم تتبعا دقيقا للأقاليم التى فتحها المسلمون ، وذلك استنادا الى روايات

مجموعة من علماء كل اقليم ، ممن التقى بهم البلاذرى فى زياراته لأوطانهم . [illegible] ابن عبد الحكم من كبار المؤرخين هو « ابن قتيبه » صاحب كتاب « الامامة والسياسة » ، وهو عبارة عن تاريخ للدولة الاسلامية منذ وفاة الرسول الكريم الى وفاة الخليفة هارون الرشيد .

المادة التاريخية وتبويبها :

واذا كان ابن عبد الحكم قد ضمن لنفسه الوقوف على قدم المساواة مع كبار المؤرخين المعاصرين له من أبناء القرن الثالث الهجرى ، فانه انفرد بميزات خاصة به فى عرضه لما تجمع لديه من مادة تاريخية وفى طريقة تبويبها كذلك . فالثابت أن مؤلفات المعاصرين له من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ظلت ـ على الرغم من أهميتها العظمى ـ تفتقر الى التنسيق أو التبويب الذى يعين القارىء على تتبع موضوع واحد تتبعا منطقيا سليما ، والخروج بنتائج واضحة محددة المعالم عن ذلك الموضوع الذى يريد دراسته . ذلك أن حرص مؤرخى القرن الثالث الهجرى على جمع كل ما يصل اليهم من مختلف الروايات عن شتى المواضيع جعلهم أصحاب ملكات عالية من حيث ادراك الجزئيات ادراكا دقيقا ، ولكن دون أن يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع . وصار على الباحث فى هذه المؤلفات أن يتذرع بالصبر وهو يطالع الروايات العديدة

http://nj180degree.com

http://nj180degree.com

المتشابهة فى المعنى والمختلفة من حيث رواتها وأن يطوى الصفحات تلو الصفحات حتى يستطيع أن يتابع ربط الأحداث التى يحاول دراستها ·

وانفرد ابن عبد الحكم من بين مؤرخى القرن الثالث الهجرى بمحاولة تجنيب الباحث لتخبط فى تيه الصفحات العديدة ، وما تحتويه من كل شاردة وواردة ، وقدم روايته فى موضوع خاص ، بلغة البحث العلمى فى الوقت الحاضر · فجمع الروايات المتعلقة بتاريخ مصر فى كتاب سماه « فتوح مصر » ، مستهدفا بيان الدور الذى قام به العرب المسلمون فى نشر الدين الاسلامى بتلك البلاد ، وما جاورها من الأقطار ، وليكون هذا البحث هاديا لمواطنيه لمعرفة الحقائق المتعلقة بوطنهم ، وسط التيارات العديدة والمتعارضة من أقوال القصاص وغيرهم من العلماء الذين انتشروا فى المساجد والمحافل ·

ويعتبر ابن عبد الحكم بتلك من طليعة المجددين فى كتابة التاريخ فى القرن الثالث الهجرى ، اذ جمع بين طريقة الاسناد الشائعة فى المنهج العام لدى مؤرخى هذا القرن ولكن خالفهم من حيث موضوع الدراسة وتبويب مادته العلمية كذلك · أما من حيث موضوع الدراسة فانه ابتعد عن طريقة الحوليات ، وهى ذكر السنة ثم سرد الروايات المتعلقة بشتى الأحداث التى وقعت فى تلك السنة ، وفى مختلف بلاد العالم الاسلامى

دون ا[illegible] دراسة مصر فى أيامها الأولى من العهد الاسلامى موضوعا خاصا له ، وأخذ يستعرض الحقائق العلمية بما يكفل له اعطاء صورة واضحة المعالم عن وطنه ، ويمكن الباحث أو القارىء لكتابه من متابعته دون شطط أو ملل · واستهدف هذا المؤرخ بجمعه للمادة التاريخية المتعلقة بوطنه فى هذه الحقبة من تاريخه المجيد بيان الدور الذى قامت به مصر فى خدمة الاسلام واقرار دعائمه ، ونشر هذا الدين الحنيف كذلك فى سائر الأقطار المجاورة لمصر ، وخاصة فى شمال افريقيا والسودان ·

وابتكر ابن عبد الحكم طريقة جديدة فى معالجة المادة التاريخية التى تناولها بالدراسة فى مؤلفه ، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تدوين التاريخ الاسلامى فى مصر وغيرها من البلاد فيما بعد · اذ قسم موضوعه الى سبعة أقسام ، وأدرك تحت كل قسم منها المادة الخاصة بتاريخ مصر منذ أقدم العصور الى أن وصل الى سنة ٢٤٦ هـ ، أى قبل وفاته بعشر سنوات · فذكر فى القسم الأول فضائل مصر وتاريخها القديم على ضوء القصص الذى رواه القدامى والمعاصرون له من الشخصيات العربية · ثم انتقل الى القسم الثانى الذى عالج فيه فتح العرب لمصر · أما القسم الثالث فاقتصر على الخطط التى شيدها العرب فى مصر ، وتناول فى القسم الرابع الادارة العربية فى مصر على عهد عمرو بن العاص وخلفه ابن أبى

سرح ، وكيف أن مصر صارت على عهدهما قاعدة لنشر الاسلام والحضارة العربية فى شمال افريقيا والأندلس وبلاد النوبة ، وأفرد ابن عبد الحكم لهذه الناحية الأخيرة القسم الخامس من كتابه · أما القسم السادس فخصصه لقضاة مصر منذ الفتح الاسلامى الى سنة ٢٤٦ هـ ، وذكر أكبر القضايا التى نظروها وأهم الأحكام التى أصدروها · وفى القسم السابع والأخير روى ابن عبد الحكم الأحاديث التى حفظها الصحابة الذين جاءوا الى مصر ، وبيان أهمية تلك الأحاديث وخاصيتها ·

ولم تقتصر الجدة التى اتصف بها كتاب ابن عبد الحكم على تبويب المادة التاريخية فحسب وانما فى طريقة معالجتها كذلك · فاتسم كل فصل من فصول الكتاب بوجهة نظر مبتكرة وجهد فريد فى استخلاص الحقائق · فنظر ابن عبد الحكم فى القسم الأول الى تاريخ وطنه مصر من زاوية جديدة لم يسبقه اليها أحد من معاصريه ، وهى ربط حاضر مصر المشرق فى ظل الاسلام بماضى هذه البلاد المجيد قبل الاسلام · فقد طالعت أعين ابن عبد الحكم ومعاصريه من أبناء الجيل العربى الناشىء ، مصر المحبوبة بآثارها العظيمة التى غالبت الزمن ، وذكرها الطيب الذى جاء فى القرآن الكريم · ولذا أقدم ابن عبد الحكم على معالجة تاريخ مصر القديم وفق منهج يستهدف بيان ما اختص به وطنه من مركز ممتاز بين بلاد

http://nj180degree.com

العالم القديم ، وما قدمه وطنه من خدمات أيضا للحضارة الانسانية ·

ولم تكن مهمة ابن عبد الحكم سهلة ميسورة فى سرد هذه المرحلة من تاريخ مصر بسبب افتقار الباحثين اذ ذاك فى التاريخ القديم الى الوسائل المطلوبة ، من حيث الخبرة بالكشوف الأثرية · ولذا لم يكن عجبا أن يلتمس هذا المؤرخ الوطنى سبيله الى دراسة هذه الحقبة الخالدة من تاريخ مصر عن طريق القصص التى رددتها شفاه المعاصرين له ، والتى امتلأت بها مجالسهم الخاصة والعامة · ولا تنتقص هذه الظاهرة من جهود ابن عبد الحكم وانما يكفيه فخرا أنه نجح بعمله فى اثارة غريزة حب الاستطلاع عند مواطنيه للبحث فى تاريخ وطنهم القديم ، وتلمس الروابط بين حاضرهم فى ظل العهد الاسلامى المشرق وماضيهم التليد ·

وتحرى ابن عبد الحكم الأمانة قدر استطاعته فى عرضه لما شاهده من أنداث مصر القديمة · فأشار الى ما وجده فيها من آثار اشتملت على المقابر والمعابد والهياكل ، وهى التى نعتها جميعا باسم « البرابى » ، وأشار الى أن بعضها خصص للعبادة والبعض الآخر لحماية البلاد · ولم يحاول ابن عبد الحكم اخفاء فشله فى معرفة أصول بعض الآثار أو الوقوف على الغرض من قيامها ،

http://nj180degree.com

ومن ذلك ما قاله فى الأهرامات نفسها ، وهى من أعظم الآثار التى طالعت أنظار معاصريه ، اذ قال :

« ولم أجد عند أهل المعرفة من أهل مصر فى الأهرام خبرا يثبت ، وفى ذلك يقول الشاعر :

حسرت عقول أولى النهى الأهـرام
واستصغرت لعظيمها الأحـلام

ملس مبنقة البنـــاء شواهق
قصرت لغـــال دونهن سهام

لم أدر حين كبا التفكر دونها
واستوهمت لعجيبها الأوهـام

أقبور أملاك الأعاجم هن أم
طلاسـم رمل كن أم أعلام »

وفى نفس الوقت أجاد ابن عبد الحكم عرض أخبار مصر القديمة ، بحسب ما جاءت فى القصص التاريخى ، بحيث صارت تكون مدخلا طيبا لتاريخ مصر الاسلامية . وتجلت براعة هذا المؤرخ فى تلك السبيل حين استهل عرضه لأحداث مصر القديمة بأقوال للرســـول الكريم ، وسرد قصص كذلك تبين فضائل مصر وما اختصت به من مركز ممتاز وسط مجريات التاريخ العالمى القديم ، وخاصة علاقة مصر ببلاد العرب قبل الاسلام . فروى ابن عبد الحكم

وصية للرسول الكريم [illegible] خيرا ، اذ قال (ص) لهم : « اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » . وتابع ابن عبد الحكم شرح قول الرسول الكريم بتفسير صلة الرحم بين المصريين والعرب ، ذاكرا قصة سيدنا الابراهيم عليه الســـلام ، وزيارته لمصر وزواجه من احدى بناتها وهى السيدة هاجر ، لأن زوجته الأولى ، وهى سارة لم تكن تنجب اذ ذاك . ثم دبت الغيرة فى نفس سارة بعد أن ولدت هاجر المصرية سيدنا اسماعيل ، وهو الأمر الذى حمل سيدنا ابراهيم على الذهاب بهما الى مكة .

واستطرد ابن عبد الحكم فى عرض هذه القصـــة شارحا تفجر بئر زمزم ، ثم مجىء قبيلة جرهم العربية الى مكة ، وزواج اسماعيل منها ، وأنه أنجب اثنى عشر ولدا ، هم آباء العرب المستعربة أى عرب الحجاز . وبذلك نجح هذا المؤرخ البارع فى توضيح صـــلة القربى بين المصريين والعرب قبل الاسلام ، وأنها ترجع الى جـــذور بعيدة فى التاريخ القديم . واختتم هذا العرض القيم بقول يدعم وجهة نظره ، حيث روى أن أبا هريرة دأب على تذكير العـــرب بهاجر المصرية قائلا لهم : « فتلك أمكم يا بنى ماء السماء — يريد العرب » .

وانتقل ابن عبد الحكم انتقالا موفقا من تاريخ مصر القديمة إلى ذكر تاريخها فى ظل الاسلام ، وهو ما تضمنه

http://nj180degree.com

الفصل الثانى من كتابه · اذ جعل همزة الوصل بين هاتين المرحلتين حدثين عظيمين ، كشف كل منهما عن ادراك العرب لأهمية مصر ، وخبرتهم الواسعة بشئونها كذلك · أما الحدث الأول فهو مجيء عمرو بن العاص الى مصر قبل ظهور الاسلام للمتاجرة فيها واتصاله بأهلها ، والحدث الثانى هو أن الرسول الكريم اختار مصر لتكون على رأس البلاد التى بعث الى حكامها بكتبه يدعوهم فيها الى الاسلام · وبدأ ابن عبد الحكم فى هذا الفصل يتخلص رويدا رويدا من الاعتماد على القصص التاريخى ويقتصر على جمع الأخبار التاريخية وحدها ، وجعلها مدخلا لدراساته القيمة عن الفتح العربى لمصر ، وانتشار الاسلام بها ·

واختار ابن عبد الحكم بداية طيبة لدراسة الفتح العربى لمصر ، حيث اتخذ من شخصية عمرو بن العاص قطب الرحى فى المفاوضات التى دارت من أجل اعداد الجيوش للمسير الى مصر والقضاء على سلطان الروم بها · وجرت هذه المفاوضات فى مؤتمر الجابية الحربى الذى عقده الخليفة عمر بن الخطاب فى اقليم الشام لدراسة أحوال تلك البلاد بعد فتحها · فقد انتهز عمرو بن العاص انعقاد هذا المؤتمر ، وأخذ يوجه أنظار الخليفة الى ضرورة فتح مصر ، ويبين له أهميتها بأسلوب الخبير بشئونها ، وأهلها ومواردها ·

اذ قارن بين دراية عمرو بن العاص بأحوال مصر ، وادراكه لأهميتها بالنسبة للفتوح العربية بالشام ، وبين افتقار الخليفة ومن معه من كبار الدولة للمعرفة الخاصة بهذا القطر · وأخيرا نجح عمرو بقوة حججه ، وما أظهره من خبرة واسعة فى الحصول على اذن الخليفة بالمسير لفتح مصر · ثم تابع ابن عبد الحكم بعد ذلك عرض صورة للزحف الذى قام به عمرو بن العاص على مصر ، حيث سار من فلسطين الى العريش ، ثم اتجه أخيرا الى حصن بابليون وألقى عليه الحصار ·

ودون ابن عبد الحكم أحداث حصار العرب لحصن بابليون فى تفصيل ممتع يشهد باطلاعه الواسع ، وحرصه على تزويد القارىء بكل ما دار من مجريات الأمور بين العرب والروم وقواتهم المدافعة عن حصن بابليون · ذلك أن المقوقس حاكم مصر من قبل الروم ، وكان مقيما فى الحصن ، حين أحس اصرار العرب على متابعة الحصار ، رغب فى مفاوضتهم ، وبعث يطلب وفدا من العرب لتحقيق هذا الغرض · وأعد عمرو بن العاص وفدا جعل على رأسه عبادة ابن الصامت وكان أسود اللون · وقد أفزع رئيس الوفد المقوقس ، وطلب تنحى عبادة وأن يتقدم شخص آخر من أعضاء الوفد لمفاوضته · ولكن الوفد العربى أبى الاستجابة لطلب المقوقس ، وأخبره أن عبادة وان كان أسود ، الا أنه أفضلهم ، والمتكلم الرسمى باسمهم ، وأن

http://nj180degree.com

دينهم لايفرق بين أسود أو غير أسود ، ولا فضل لأحد على آخر الا بالتقوى ·

وكشف ابن عبد الحكم فى عرضه للمفاوضات السالفة الذكر عن موضوع اقتصادى هام ، وهو شرح معنى « الجزية » باعتبارها نظاما أساسيا من النظم التى وضعها الاسلام للمجتمعات الانسانية · فقد ذكر المفاوضون العرب للروم أنهم يعرضون عليهم ثلاث خصال ، هى الدخول فى الاسلام ، أو دفع الجزية اذا رغبوا فى البقاء على دينهم، واذا رفضوا الخصلتين السالفتين فلا مناص من القتال فى سبيل نشر الاسلام · وشرح ابن عبد الحكم « الجزية » شرحا طيبا ، كما جاء على لسان المفاوضين العرب ، حيث أوضحوا أن الجزية تجبى فى مقابل تولى المسلمين الدفاع عن غير المسلمين التابعين لهم، وحماية أرواحهم وممتلكاتهم· ولما انتهت تلك المفاوضات الى اصرار الروم على عدم دفع الجزية استأنف المسلمون القتال واستولوا على حصن بابليون ·

وهناك حقيقية أخرى هامة يجدر الاشارة اليها ، وهى أن ابن عبد الحكم قد أوضح ـ فى صورة لم يسبقه اليها غيره من المؤرخين ـ أن فتح مصر لم يكن الا معارك بين العرب والروم ، وأن المصريين وقفوا منذ اللحظة الأولى موقف المرحب بالجيوش العربية ، ونظروا اليها نظرة المحرر لهم من ربقة الروم واستعمارهم · فأشار الى

مساعدات المصريين للجيش العربى ، وخاصة بعد سقوط حصن بابليون ، وزحفه على الاسكندرية ، التى كانت اذ ذاك عاصمة البلاد · اذ بادر أهل القرى والمدن التى مر بها الجند العرب الى امدادهم بالمؤن ، وتمهيد الطرق لهم ، واصلاح الجسور التى خربها الروم أثناء تقهقرهم الى الاسكندرية · وكان لهذه المساعدات أثرها فى سرعة زحف عمرو بن العاص ، ووصوله الى الاسكندرية واستيلائه عليها ، وطرد الروم نهائيا عن الديار المصرية ·

وختم ابن عبد الحكم دراساته لأحداث الفتح العربى لمصر بحادثة طريفة تبين سعة اطلاعه ، واختياره الموفق للروايات التى اعتمد عليها فى عرض المادة التاريخية · فذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب ظل ساهرا يتابع بنفسه أنباء الفتح العربى ، وأن رسول عمرو بن العاص الذى جاء الى الحجاز حاملا بشرى الفتح بعد سقوط الاسكندرية وصل المدينة المنورة وقت الظهيرة ، وآثر الانتظار فى المسجد حتى يحين الوقت المناسب للذهاب الى الخليفة · غير أن أخبار هذا الرسول بلغت عمر بن الخطاب ، فاستدعاه فورا ، وعتب عليه هذا التأخير فى مقابلته ، وأخبره أنه لا ينام من أجل خدمة رعاياه ، وأن الواجب يحتم عليه المبادرة بابلاغ ما لديه من أخبار هامة ، ولا سيما فتح العرب لمصر ·

ويعتبر القسم الثالث من كتاب « فتوح مصر » فنا

http://nj180degree.com

جديدا فى التاريخ ابتكره ابن عبد الحكم ، ولم يسبقه اليه أى مؤرخ آخر من معاصريه ، وهو فن « الخطط » ويقصد به تاريخ الأمصار أى المدن ، وبيان مالها من اثر فى بناء الحضارة العربية ، ونشر معالمها ومظاهرها واعتمد ابن عبد الحكم فى معالجته لهذا الموضوع على مشاهدته للأمصار فى مصر وأهمها الفسطاط التى غدت فى سرعة ملحوظة مركزا هاما من مراكز العمران ، والنشاط العلمى والاقتصادى للحياة العربية الاسلامية الناشئة فى الديار المصرية وجاراتها من بلاد شمال افريقيا كذلك .

وتعتبر المعلومات التى ذكرها هذا المؤرخ بخصوص هذا الموضوع ذات قيمة تاريخية كبرى ، لأنها تستند الى مصدرين كل منهما وثيق الصلة بالفسطاط وتطورها . أما المصدر الأول فهو أسرة ابن عبد الحكم حيث حفظ الوالد والاخوة الكثير من أخبار الفسطاط والتى تناقلوها بدورهم عن أجدادهم وكبار المعاصرين لهم . وأما المصدر الثانى فهو مشاهدات ابن عبد الحكم نفسه والتى اتسمت بالدقة والنظرة الفاحصة .

وأول شىء أظهره ابن عبد الحكم هو اعتزازه بالروايات التى نقلها عن والده فيما يتعلق باسم العاصمة الجديدة لمصر الاسلامية ، وشرح السبب فى اختيار موقعها . اذ أخبره والده أن عمرو بن العاص حين انتهى من الاستيلاء على حصن بابليون ، وأراد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه ، أى خيمته التى ضربها خارج الحصن ،

ولكن [illegible] بعمرو بن العاص الى ترك فسطاطه ، عطفا منه على هذا الطائر . وعندما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ورغب فى تأسيس عاصمة له تذكر مكان فسطاطه قرب حصن بابليون ووقع اختياره عليه لتحقيق هذه الرغبة .

ومما يدل على مقدرة ابن عبد الحكم على استنتاج الحقائق التاريخية أنه نسب تسمية العاصمة باسم الفسطاط الى فسطاط عمرو بن العاص ، الذى أفرخت فيه اليمامة فقد أيدت الأبحاث الحديثة وجهة نظر ابن عبد الحكم واستبعدت كل المحاولات التى قصد منها اظهار اشتقاق اسم الفسطاط من اللغة اللاتينية ، التى استخدمها الروم بمعنى « المعسكر الكبير » . اذ استخدم العرب الفسطاط بمعنى « مجتمع أهل الكورة » أى الصقع أو المدينة ، وأن ابن عبد الحكم استهدف بهذا الاسم أن فسطاط مصر صارت مجتمع العرب ومقرهم الدائم فيها .

وانتقل ابن عبد الحكم بعد ذلك الى دراسة معالم الفسطاط ، وبدأ بذكر مسجد عمرو بن العاص ، الذى صار قلب المدينة ، ومركز العمران فيها . ثم استعرض بعد ذلك الخطط التى شيدتها القبائل التى جاءت مع عمرو بن العاص ، وكيف اتخذت تلك الخطط المسجد أيضا مركزا تدور حوله . وكان يقصد بالخطة الأرض التى ينزلها الانسان ، ولم ينزلها قبله نازل ، وأ ما يخطه

http://nj180degree.com

الانسان لنفسه من الأرض ، أى يجعل لها حدودا ليعلم أنه نازلها ، وأنها له ، ثم اتسع معنى الخطة ، وصار يقصد بها الحى الذى تختص به القبيلة أو أصحاب مهنة واحدة ، أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن • وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية خطة فى الفسطاط ، أى كل قبيل نزلت فى جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التى اختطوها ، وصارت كل خطة تعرف باسم الجماعة التى نزلت فيها •

وأفاض ابن عبد الحكم فى وصف هذه الخطط الأولى فى الفسطاط ، ونظر اليها بعين الخبير المحب لمسقط رأسه • وتعتبر رواياته من أهم الأوصاف الخاصة بهذا الموضوع ، لأنه ولد وعاش بالفسطاط ، وأدرك معظم معالمها القديمة ، كما أدركت أسرته ما اندثر منها ونقل عن والده واخوته الكثير من المعلومات المتعلقة بها ، وما تعاقب عليها من تطورات الى أيامه ، أى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى • وسار ابن عبد الحكم فى عرض تلك الخطط وفق منهج حسن وصار فيما بعد النموذج الذى احتذاه مؤرخو مصر وخططها • فذكر ابن عبد الحكم الخطط الأولى التى بنيت أيام عمرو بن العاص ، ثم ذكر مواضيع تاريخية أحيانا تتعلق بسكان تلك الخطة ، وتدرج من ذلك الى ربط الموضع الأول للخطة أو الحى بما صار عليه الحال فى أيامه ، حتى يستطيع الباحث أن يكون صورة واضحة المعالم عن العاصمة • ويلاحظ أن ابن عبد الحكم اتبع

طريقة [illegible] فسرد الكثير من الحقائق التاريخية التى تتعلق بالأشخاص أو القبائل التى شيدت تلك الخطط ، بحيث يعيد الى ذهن القارىء أمجادا اندثرت ، وتحثه على الاعتزاز بماضيه •

وهناك جانب طريف أشار اليه ابن عبد الحكم فى دراساته لنمو الفسطاط وضواحيها ، فذكر أن السلطات فى العاصمة خصصت ديوانا لتسجيل كل زيادة فى عدد السكان • فعينت على كل قبيلة بالفسطاط رجلا من أهلها مهمته احصاء مواليدها والنازلين معها ، ثم تدوين ذلك بالديوان • وعلى هذا النحو من الميل الى ذكر التفاصيل الطريفة تابع ابن عبد الحكم كشف الجوانب التى تتعلق بمسقط رأسه وتاريخها من حيث اتساعها وتنظيم السلطات للحياة فيها • اذ تنبض كل فقرة من فقرات بحثه عن الفسطاط عن ايمانه العميق بعظمة العاصمة الجديدة لمصر الاسلامية ، والتى خططت سريعا فى ميدان المجد والحياة الاسلامية الزاهرة •

واقتضى انتهاء القسم الثالث من كتاب « فتوح مصر » على النحو السالف الذكر ضرورة التوسع فى دراسة الشئون الداخلية لمصر فى ظل الحكم الاسلامى الجديد • وهذا ما قام به ابن عبد الحكم فى القسم الرابع من كتابه ، والذى خصصه لتاريخ الادارة العربية فى مصر • واهم المواضيع التى تناولها هذا المؤرخ بالدراسة هو اظهار الفارق

http://nj180degree.com

بين الادارة فى مصر أيام الحكم الاسلامى وبين ما كانت عليه أيام الروم (البيزنطيين) ، الذين استعمروا تلك البلاد قبل الفتح الاسلامى · فاظهر أن مصر كانت تعانى أيام ادارة الروم حكما بغيضا ، لأن السلطات الرسمية اعتبرت أهالى البلاد مجـــرد أدوات لانتاج القمح وغيره مما تحتاجه الدولة المستعمرة وجعلت المهام الأساســية لرجال الادارة هـ وابتزاز أموال الرعية دون نظر للصالح العام · وأزال المسلمون هذه الادارة السيئة ، ووضعوا نظما سليمة لحكم البلاد قوامها الاستفادة من أهل الخبرة فيها ، وشراك الأهـالى معهم كذلك فى شـــتى النواحى الادارية · فذكر ابن عبد الحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب طلب من عمرو بن العاص بعد فتح مصر أن يستشير بطريق البلاد ــ وهو بنيامين ــ فى خير وسيلة للادارة والنهوض بالمرافق العامة وتنظيم الأحوال المالية دون ضرر بالناس · وأشار بنيامين باتباع ما يلى :

١ ــ أن يستخرج خراج مصر فى أوان واحد عند فراغ الناس من الزراعة ·

٢ ــ أن تحفر خلجانها كل عام ·

٣ ــ أن تصلح جسورها وتسد ترعها ·

٤ ــ ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس ·

وأشار ابن عبد الحكم أن الادارة المصرية سارت فعلا على هدى أقوال بنيامين المصرى ، فتركت لأهالى البلاد تنظيم شئونهم المالية ، لأنهم أعرف بمصالحهم وحاجاتهم · وأول مسألة اهتمت الادارة العربية باصلاحهـا هو تنظيم الأموال العامة فيها ، أو موارد البلاد ، وهى التى عرفت باسم « الخراج » · وأسهب ابن عبد الحـــكم فى شرح التنظيم المالى على عهد عمـرو ابن العاص ، لأنه أول وال تقلد أمور الادارة المالية الى جانب الشئون العامة لمصر · ويعتبر الفصـــل الذى دونه هذا المؤرخ عن تلك المرحلة المبكرة من الادارة على عهد عمرو بن العاص صورة واضحة للمكلية العقارية وكذلك ضريبة الأرض فى مصر ، وكيف أن حكامها حرصـــوا كل الحرص على تدعيم اقتصاديات الأهالى ، لأنها بالتالى تكون العمود الفقرى لموارد الادارة الماليـة ·

وفى نفس الوقت أشاد ابن عبد الحكم بحسن سير الادارة العربية فى مصر بفضل التوجيه المتصل والاشراف الدقيق من جانب الخلافة · فأوضح أن الخليفة عمر بن الخطاب رسم لعماله على الولايات أمثل السبل لادارة دفة الحكم ، وأنه دأب على عقد اجتماعات دورية لأولئك العمال ومناقشتهـم فى أعمالهـــم ، وترويدهم دائمـــا بآرائه وتوجيهاته · ومن أطرف النماذج التاريخية التى ذكرها ابن عبد الحكم فى بحثه عن الادارة العربية فى مصر ، بيانه للعلاقة بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ·

اذ جهد الخليفة فى تلقين عمرو مبدأ المساواة بين الرعية أمر واجب ، وأنه لن يفرط فى حق أى فرد مهما كانت منزلة الحاكم اذا أساء فى حق هذا الفـــرد • ثم أعقب ابن عبد الحكم ذلك بذكر أول تطبيق عملى للمبدأ السالف الذكر حين وصلت الخليفة شكوى من أحد أبناء مصر ، ضد ابن عمرو بن العاص نفسه ، اذ استدعى الخليفة عمرا وابنه ، وأوقع القصاص على ذلك الابن ، كما لفت نظر عمرو مرة أخرى الى ضرورة مراعاة القواعد السليمة فى حكمـه •

واختتم ابن عبد الحكم بحثـــه فى تاريخ الادارة العربية بشرح نظام « المقاسمة » الذى يقضى بأن يرد كل وال الى الخزانة العامة ، أو بيت المال نصف الثروة التى جمعها أثناء ولايته • وبلغ هذا المؤرخ درجة الاجادة فى دراسته لهذا اللون من « الرقابة الادارية » بلغة العصر الحاضر حين شرح السبب فى وضع نظام المقاسمة • فذكر أن ذلك يرجع الى اتجـــاه الحكام على عهـــد الخليفـــة عمر بن الخطاب نحو الثراء ، واســـتغلال أموالهـــم أو استثمارها فى الأعمال التى تدر عليهم رزقا كبيرا • وتناقل الناس أخبار نفر من أولئك العمـــال ، مما دعا الخليفة الى تعيين جماعة من رجال الادارة لمحاسبة العمال والولاة سنويا ومقاسمتهم ثرواتهم • وضرب ابن عبد الحكم مثلا عمليا لذلك حين بعث الخليفة أحد رجـاله لمقاسمة عمرو بن العاص فى مصر ، وأوضـــح أن مبعوث الخليفة

http://nj180degree.com

اتصف بالأمانة المطلقة ، والابتعاد عن كل مظاهر الرفاهية والشذوذ •

وساعد انتظام الادارة العربية فى مصر ، على اتجاه ولاتها الى نشر الاسلام عند جيرانهم ، وخاصـــة فى بلاد المغرب وبلاد النوبة كذلك • وتناول ابن عبد الحكم تاريخ المسلمين وحملاتهم فى هاتين الجبهتين ، فى القسم الخامس من كتـــابه « فتـــوح مصر » • والأمر الهام هنا هو أن ابن عبد الحكم اعتبر شمال أفريقيا والسودان اقليمين كل منهما وثيق الاتصال بوطنه مصر ، وأن هذه الظاهرة هى التى جعلت من الاقليم المصرى قاعدة لنشر الاسلام فى تلك الجبهات الغربية والجنوبية له • واتسمت دراســـات ابن عبد الحكم فى هذا القسم بالايجاز ولكن بالدقة التامة والانفراد كذلك بمعلومات قيمة وهامة • فقد جمع مادته عن شمال افريقيا من كبار علماء المالكية الذين جاءوا الى مصر للتفقه على أبناء أسرته ، على حين وجد فى الفسطاط جماعة من سكان النوبة أخذ عنهم الصحيح من أخبـــار بلادهم وتاريخها • ولذا صارت الروايات التى تناولهـا ابن عبد الحكم عن شمال افريقيا والنوبة مرجعا لا يستغنى عنه كل باحث فى شئون هذين القطرين فى العصـــور الوســـطى •

وعاد ابن عبد الحكم مرة أخرى الى دراسة التطورات الجديدة التى مر بها وطنه فى ظل الحكم الاسلامى ، وذلك

http://nj180degree.com

بوضع بحث قيم فى تاريخ القضاة بمصر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب الى سنة ٢٤٦ هـ ، وأفرد لذلك القسم السادس من كتابه · وجاء اهتمام هذا المؤرخ بتاريخ قضاة مصر بسبب الصلة الوثيقة التى قامت بين أسرته والادارة القضائية فى البلاد · فكان والد ابن عبد الحكم يتولى وظيفة « صاحب المسائل » ، ومهمتها التحرى عن الشهود الذين يتقدمون للمحاكم ، والتأكد من سلامة سيرتهم · وأكسبت هذه الوظيفة أسرة المؤرخ ابن عبد الحكم خبرة واسعة بأحوال القضاء فى مصر ، وتطور نظمه وتقاليده ، وهى الأمور التى دونها ابن عبد الحكم فى القسم السادس من كتابه · ذلك أن قضاة مصر اهتموا بأحوال الشهود ، وحددوا عدد من يصلح منهم للشهادة ، منعا لشهادة الزور ، ودفعا لما يترتب على ذلك من ضياع حقوق الناس · وتمتع محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم بالسيرة الطيبة التى حظى بها والده فى ميدان القضاء ، وترك لأخيه المؤرخ ابن عبد الحكم مادة قيمة أيضا لتدوين تاريخ قضاة مصر ·

وهكذا وجد هذا المؤرخ فى علاقة أسرته بالادارة القضائية بمصر سبيلا طيبا ليكتب تاريخ قضاة هذا البلد ، ويكشف عن جوانب هامة فى حياتهم فى هذا الميدان الجليل · فأوضح أن القاضى تمتع بنفوذ كبير وسلطان واسع ، شمل الأراضى التابعة لسلطان الوالى من الناحية السياسية ، كما أن الاختصاص النوعى للقاضى كان غير محدد سواء فى المسائل المدنية أو الأمور الجنائية · وظل

القاضى [illegible] تسىء الى عمله ·

وأشار ابن عبد الحكم الى حقيقة تاريخية أخرى هامة تتعلق بقضاة مصر وهى أنهم كانوا يعقدون مجالسهم فى جامع عمرو بن العاص ، ولكن لم يتقيدوا دائما بهذا المكان ، اذا اقتضت الضرورة ذلك · فروى أن امرأة حضرت من الريف لمقابلة القاضى « غوث بن سليمان » (١٦٧ هـ ـ ٧٨٣ م) ، وشاهدته وهو فى طريقه الى المسجد ، فاندفعت نحوه تعرض شكواها ، وعندئذ نزل القاضى عن دابته ، ونظر فى شكواها ، وقضى لها على الفور · وعلى هذا النحو من العرض الطريف النابض بالحياة تابع ابن عبد الحكم دراساته عن قضاة مصر ، وترك صورة رائعة عن هؤلاء القضاة ونشاطهم فى خدمة مهمتهم السامية ·

وأخيرا اختتم ابن عبد الحكم مؤلفه القيم بالفصل السابع ، والذى أفرده للصحابة الذين وفدوا الى مصر وروى عنهم الأحاديث المختارة · وكانت التربية الدينية التى تلقاها ابن عبد الحكم سببا فى اهتمامه بتاريخ أولئك الصحابة ، وتسجيل نشاطهم وخدماتهم للدولة الاسلامية الناشئة · والمعروف أن أسرة ابن عبد الحكم كانت على المذهب المالكى ، والذى يعطى الأحاديث النبوية الكريمة الأهمية الكبرى فى التشريع ، واتخاذها الأساس الأول

http://nj180degree.com

والمرجع الأخير لكل فقيه أو عالم فى شئون الدين ، وتطلبت هذه الظاهرة بالتالى اهتمام أفراد الأسرة بالصحابة الذين رووا أحاديث الرسول الكريم ومعرفة قدر كل منهم من العلم والاجادة .

وانفرد ابن عبد الحكم من دون سائر أفراد أسرته برأى جديد ، وهو الاقتصار على تدوين تاريخ الصحابة الذين وفدوا الى مصر ، وذكر مختارات من أحاديثهم مع بيان المناسبات التى وردت فيها تلك الأحاديث . ورتب ابن عبد الحكم أولئك الصحابة ترتيبا طيبا ، ذاكرا كل مجموعة منها حسب ما اقتضاه بحثه . فمثلا استعرض الصحابة الذين شهدوا فتح مصر وأولئك الذين جاءوا اليها بعد الفتح ، ثم الصحابة الذين دخلوا مصر وهم فى طريقهم الى شمال أفريقيا . وفى نفس الوقت أشار الى الصحابة الذين شيدوا لهم منازل بالفسطاط وأقاموا بها ، أو رحلوا عنها .

وغلبت على ابن عبد الحكم روح التاريخ وهو يروى أحاديث الصحابة ، فأسهب فى ذكر الوقائع التى أحاطت بتلك الأحاديث أو المناسبات التى تتعلق بها ، كما أشار الى الأحاديث التى انفرد بها الصحابة فى مصر ، وعدد كل منها . واستطاع ابن عبد الحكم بذلك أن يدون تاريخ مدرسة الصحابة فى مصر ، وأن يحفظ لرجالها الأجلاء

ما أسهلوا به من تعليم فى [illegible] الاسلامية .

وكان من حسن طالع الدراسات التاريخية فى مصر أن وجد كتاب ابن عبد الحكم سبيله الى الأجيال المتعاقبة بعد أن قدر له أن ينجو من الضياع خلال الأزمة التى تعرضت لها أسرة هذا المؤرخ بسبب اتهامهم باخفاء أموال ابن الجروى . فقد ظل مؤرخو مصر منذ القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ـ الى القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى ـ يتخذون كتاب « فتوح مصر » نموذجا يحتذونه فى التأليف وتناول المواضيع كذلك . فلا يكاد كتاب من مؤلفات المؤرخين المصريين طوال العصور الوسطى يخلو من أثر مباشر أو غير مباشر لكتاب ابن عبد الحكم . اذ نقل بعض المؤرخين عنه نقلا حرفيا ، على نحو ما فعله المؤرخ الكندى فى كتابه « ولاة مصر وقضاتها » اذ اقتصر فى ذكر قضاة مصر على نفس الأسماء التى أوردها ابن عبد الحكم مع اضافة تفصيلات يسيرة . وفى نفس الوقت ظلت النواة التى وضعها ابن عبد الحكم لبعض المواضيع ، مثل « دراسة الخطط » تنمو وتترعرع ، حتى وجدت أبهى كمال لها فى كتاب « الخطط » للمقريزى ، والذى يمثل القسم الثالث من كتاب ابن عبد الحكم الحجر الأساسى له . ومن ثم استطاع الناقلون عن ابن عبد الحكم من أمثال الكندى

http://nj180degree.com

« ت ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١ م) والمقريزى وأبى المحاسن (من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى) وأخيرا ابن اياس (ت ٩٣٠ هـ ـ ١٥٢٣ م) أن يحملوا تراث « فتوح مصر » الى أجيال المؤرخين من أبناء مصر والعالم الاسلامى ، وأن يحفظوا للدراسات الاسلامية كنزا ثمينا ، مازالت تستمد منه مقوماتها ، وما يكفل لها النماء والازدهار ·

نماذج من كتاب فتوح مصر

فضائل مصر :

قال رسول الله (ص) :

« اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا ، فان لهم ذمة ورحما ·· قال الليث ـ قلت لابن شهاب ، ما رحمهم ؟ ، قال : ان أم اسماعيل عليه السلام منهم ·

حدثنا عثمان بن صالح ، قال أخبرنا مروان القصاص ـ صاهر الى القبط من الأنبياء (صلوات الله عليهم) ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، تسرر هاجر · ويوسف عليه السلام تزوج بنت صاحب عين شمس · ورسول الله (ص) تسرر مارية » ·

« من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها فلينظر الى أرض مصر حين تخضر زروعها وتثمر ثمارها ·

« فلما كانت سنة ثماني عشرة ، وقدم عمر ـ رضى الله عنه ـ الجابية خلا به عمرو بن العاص فاستأذنه فى المسير الى مصر · وكان عمرو قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها ·

وكان سبب دخول عمرو اياها ·· أنه قدم الى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش · فاذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس ، فخرج فى بعض جبالها يسيح وكان عمرو يرعى ابله ·· اذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر · فوقف على عمرو فاستسقاه ، فسقاه عمرو من قربة له ·· فقال له الشماس : انى رجل غريب فى هذه البلاد ·· وأنا أريد الرجوع الى بلادى فهل لك أن تتبعنى الى بلادى ؟ ··

فقال عمرو : وأين بلادك ؟ · قال : مصر ، فى مدينة يقال لها الاسكندرية ·

فقال عمرو : لا أعرفها ولم أدخلها قط · فقال له الشماس : لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها ··

فانطلق عمرو مع الشماس الى مصر حتى انتهى الى الاسكندرية · فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها

http://nj180degree.com

من الأموال والخير فاعجبه ذلك ، وقال : ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال ..

فلما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية قام اليه عمرو فخلا به ، وقال : يا أمير المؤمنين ايذن لى أن أسير الى مصر .. انك ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهى أكثر الأرض أموالا .. فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ، ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن عمر لذلك ، فعقد له على أربعة آلاف رجل » .

خطط الفسطاط :

« بنى عمرو بن العاص المسجد .. وكان ما حوله حدائق وأعنابا فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم : فلم يزل عمرو قائما حتى وضعوا القبلة ..

واختط عمرو بن العاص داره التى هى اليوم (أى أيام ابن عبد الحكم) عند باب المسجد ، وبينهما الطريق ، وداره الأخرى اللاصقة الى جنبها . واختط عبد الله ابنه هذه الدار الكبيرة التى عند المسجد الجامع .. واختط خارجة بن حذافة غربى المسجد .. وكان أول من بنى غرفة (أى طابق علوى) بمصر ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب الى عمرو بن العاص « أما بعد فانه بلغنى أن

خارجة بن حذافة بنى غرفة [illegible] على عورات جيرانه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ، ان شاء الله والسلام ..

وكان خارجة بن حذافة على شرط عمرو بن العاص أيام عمر وأيام معاوية حتى قتله الخارجى (وهو أحد الخوارج الثلاثة الذين تعاهدوا على قتل على بن أبى طالب ومعاوية وعمرو) . وذلك أن عمرو بن العاص كان أصابه فى بطنه شىء ، فتخلف فى منزله ، وكان خارجة يغشى الناس ، فضربه الحرورى (وهو الخارجى) ، وهو يظن أنه عمرو ، فلما علم أنه ليس عمرا قال : أردت عمرا وأراد الله خارجة . فكان عمرو يقول : ما نفعنى بطنى قط الا ذلك اليوم .

الاشراف الادارى :

« دخل عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب ، وهو على مائدته جاثيا على ركبتيه ، وأصحابه كلهم على تلك الحال ، وليس فى الجفنة فضل لأحد يجلس . فسلم عمرو على عمر ، فرد عليه السلام . وقال : عمرو بن العاص ؟. قال : نعم . فأدخل عمر يده فى الثريد ، فملأها ثريدا ، ثم ناولها عمرو بن العاص ، فقال خذ هذا . فجلس عمرو، وجعل الثريد فى يده اليسرى ، ويأكل باليمنى ، ووفد أهل مصر ينظرون اليه . فلما خرجوا قال الوفد لعمرو :

http://nj180degree.com

أى شىء صنعت ؟ ، فقال عمرو : انه والله لقد علم أنى بما قدمت به من مصر لغنى عن الثريد الذى ناولنى ، ولكنه أراد أن يختبرنى ، فلو ما أقبلها للقيت منه شرا ٠

قضاة مصر :

« قال رسول الله ، القضاة ثلاثة ، اثنان فى النار وواحد فى الجنة ، رجل علم علما فقضى بما علم فهو فى الجنة ، ورجل جهل فقضى بالجهل فهو فى النار ، ورجل قضى بغير ما يعلم ففى النار ٠٠

كان أول قاض بمصر قيس بن أبى العاص ، كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتوليته سنة ثلاث وعشرين ٠٠

لما ولى ـ توبه بن نمير القضاء (١١٥ هـ ـ ٧٣٣ م)، دعا امراته عفيرة ، فقال : يا أم محمد ، أى صاحب كنت لك ؟ ٠ قالت : خير صاحب وأكرمه ٠ قال : فاسمعى ، لاتعرضن لى فى شىء من القضاء ، ولاتذكرنى بخصم ، ولا تسالينى عن حكومة ، فان فعلت شيئا من هذا فانت طالق ٠ فاما أن تقيمى مكرمة ، واما أن تذهبى ذميمة ، (فكانت) ترى دواته قد احتاجت الى الماء ، فلا تأمر بها أن تمر خوفا من أى يدخل عليه فى يمينه شىء ٠

الصحابة فى مصر :

عمرو بن العاص ، وهو أول أمير أمر على أهل مصر فى الاسلام ، ولهم عنه أكثر من عشرين حديثا ٠٠

وتوفى عمرو يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين ، وصلى عليه عبد الله بن عمرو ، ودفن بالمقطم من ناحية الفج ٠٠ وكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز ، فأحب أن يدعو له من مر به ٠٠

عبد الله بن عمرو بن العاص ٠ ولهم عنه شبيه بمائة حديث ، منها : أن رسول الله (ص) قال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ٠

عبد الله بن الحرث الزبيدى وهو آخر صحابى توفى بمصر سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ، ولأهل مصر عنه عن النبى (ص) ما يقرب من عشرين حديثا منها :

سمعت رسول الله (ص) يقول ؟ ان الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠

ومنها حديث عن عبد الله بن الحرث قال : ما رأيت أكثر تبسما من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ٠

NYROUF

http://nj180degree.com

NYROUF

NYROUF
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٣٨

ISBN — 977 — 01 — 4409 — 6